ماليزيا

صعدت الممر الطويل الذى يرتفع بالتدريج إلى صالة انتظار سائراً وسط الجمع الصغير الذى ترك الطائرة معي منذ لحظات . أخذت عيناى تدور بفضول حول المبانى . والأضواء . والساحات الشاسعة الغارقة فى ظلام الليل . وقد انتابنى ذلك القلق الذى يصيبك عندما تطأ قدماك أرض بلد جديد .

عند نهاية الممر انحنيت لليمين . وتأهبت لاختراق الباب المفضى إلى الصالة الواسعة المضاءة بمصابيح مستترة . تغرق الناس . والجدران ، والمقاعد . والوجوه بأشعتها العنبرية الدافئة والغامضة فى الوقت نفسه عندما فوجئت بصوت أنثوى هادئ ينطق اسمى .

تلفت إلى يسارى لأجد ثلاثة أشخاص يقفون . رجل نحيف ذو عينين سوداوين فيهما شيء كالقسوة الباردة . ويبدو من ملامحه . ومن بشرته السوداء أنه هندى . وشاب تشع من عينيه . ومن وجهه الصينى الأبيض المستدير ابتسامة مشرقة . وفتاة طويلة ترتدى . « السارى » تلمع ألوانها فى الضوء الخافت . تقدموا نحوى وشعرت بأيادٍ تمتد إلى حقائبى لتحملها عنى . وإلى يدى لتضغط عليها بحرارة . وإلى جواز السفر . وتذكرة الطائرة والأوراق الأخرى الموضوعة فى محفظة من الجلد ، والتى كنت أقبض عليها بحرص المسافر « الغشيم » وإلى عروة « الجاكتة » لتضع زهرة الأرجس البنفسجية فوق صدرى . وإلى ذراعى لتقودنى حيث ينبغى أن أتجه .

قال الشاب الصينى :

« مرحباً بك فى ماليزيا . من أين جئت ؟ »

« من مصر » .

ماليزيا : فتاة من أصل إندونيسى

آه . . . مصر بعيد . لكنه قريب إلى قلوبنا .

شعرت بتلك السعادة . وذلك الاطمئنان اللذين يستوليان عليك عندما تنزل في بلد غريب لتجد أن الناس ينتظرونك بترحاب . وأن كل شيء أعد لاستقبالك وما عليك إلا أن تترك نفسك لأزمن يحملك فوق أمواج من المتعة الهادئة .

لم أشعر بنفسي إلا وأنا جالس في سيارة بيضاء صوينة . كانت تنتظر عند المدخل الكبير . مدت ساق المتعبين من قلة الحركة في الطائرة وأستندت ظهري على المقعد الوثير . الطريق شريط أسود تنهبه عجلات السيارة بصوتها المنتظم . يمتد أمامك في ظلام الليل كأنه يقودك إلى مصير مجهول . وأضواء المباني تتلألأ وتنبئك بأن هناك أشياء ستراها غداً .

أحاديث في حمام السباحة

« فندق ميرلين » مبنى ضخم يرتفع في سماء كوالالامبور . يقولون عنه إنه أكبر وأفخم فنادق العاصمة . بالنسبة إلى لم يكن سوى مكان للنوم . الفندق مبني في شكل حدوة حصان وفي الفراغ الداخلي حديقة تزدحم فيها الزهور الاستوائية . بألوانها العميقة . وعطرها القوي كالخدر . وأشجار جوز الهند الفارعة . والشجيرات الصغيرة بأوراقها الكبيرة تشعر فيها بغزارة الطبيعة وعطائها . وفي وسط الحديقة حمام للسباحة كأن لونه يذكرني بالبحر عند الشواطئ الممتدة غربي الإسكندرية .

كنت أذهب إلى حمام السباحة يومياً بعد انتهاء جلسات المؤتمر لأقضي هناك ساعة أو ساعتين . وفي هذا المستطيل الصغير من المياه الزرقاء التي لا تزيد على مائتي متر مربع تجمعت خيوط من أنحاء العالم وخيوط من كوالالامبور . تتشابك في نسيج يجذبك بألوانه وظلاله . نسيج مثير تصنعه لعبة المصالح والجنس والأجناس .

ماليزيا : فتاة قروية ... زهور اللوتس للبيع .. من يشترى؟

وفى حمام السباحة ذابت ذلك الخليط من الناس الذين يتحكمون فى مصير ماليزيا . بل فى مصير عديد من بلدان الآسيوية . فوق الناس الذين يتحدثون عن عواصم بلادهم كما نتحدث نحن عن شوارع القاهرة وبالألفة نفسها . ونيويورك . ولندن . تحس أنهم يتنقلون بينها مثلما تتنقل من السيدة زينب إلى بولاق إلى الجيزة . يعقدون صفقات هنا وهناك ويحملون أوراقهم فى حقائب السمسونيت ، ويدبرون أمورهم فى حديث هامس حول الفوائد المتناثرة على الخشيش الأخضر . ويحتسون المشروبات الآسيوية المسكرة المخلوطة بالفواكه الملونة . ويعرضون أجسادهم المشبعة بالطعام والمائدة تحت أشعة الشمس . ويلقون نظرات الإهمال المتعمد على أرداف وسيقان . ونهود النساء . وهن يتهامسن تصف عاريات حول الحمام . أو يقفزن بأنفسهن فى مياهه الزرقاء أو يفرشن حشيشه الأخضر فى استرخاء كسول . هنا تحس بالمرأة العاطلة التى تحترف بيع جسدها فى بورصة المتعبين أزواجا كانوا . أو عشاقاً . أو مجرد معجبين عابرين .

الرجل اليابانى صاحب مصانع الدراجات البخارية يسحب زوجته المطيعة يومياً إلى الحمام ويسبح إلى جوارها بحركات عنيفة سريعة تذهب سدى فى الهواء . ثم يجلس صامتاً بجسده المكتنز الأبيض لا يتحدث إلى أحد . إلى حتى زوجته المسالمة التى تجلس إلى جواره منتظرة إشارة الانصراف . والإنجليزى فارع الطول الذى يرتدى لباساً للسباحة بلون الدم . تتخلله رسومات الأشجار والأزهار الملونة . والذى عرفت منه فى لحظة ود مفاجئة أنه من كبار المساهمين فى شركات مناجم القصدير . قال لى فى أثناء حديث طويل تبادلناه فى أمسية أحد الأيام إن ماليزيا تتبع سياسة حكيمة للغاية . فهى ما زالت تعتمد على رءوس الأموال وعلى الخبرة الأجنبية . ولا تحاول أن تسير فى طريق التصنيع الوعر . بل تعتمد فى اقتصادها على تصدير المطاط الذى يشكل ٤٠ ٪ من الدخل

ماليزيا : الفتيات يرقصن بالسيوف

تقوى . وتقصير ٥٥ . ثم انتخب وزيت لتخيل الذين يغضبان خمسة عشرة فى مائة بالقية . كما أوضح فى أنها لا تصرف من ميزانيتها فى أغراض التصنيع أكثر من نسبة واحد فى المائة . فلما أشرت إلى خطورة الاعتماد على تصدير المواد الخام التى تتدهور أسعارها بسبب تحكم الاحتكارات الغربية فى أسواقها أحسست بلحظات الود المفاجئة تتبخر فى الخال . والفتاة السويدية التى كانت تعرض أجزاء جسمها المختلفة لأشعات الشمس . وتبحث عيناها الزرقاوان كل يوم عن رجل جديد من خلف الكتاب الذى كانت تتظاهر بقراءته . والرجل المالیزى . أحد المسئولين عن تنظيم المؤتمر الخاص بتنظيم الأسرة فى المناطق الصناعية والذى قال لى إن هتلر كان أول من أدخل فكرة تنظيم الأسرة عن طريق إبادة الأجناس الضعيفة . ومنعها من التناسل . مما يبين أنه كان رجلا بعيد النظر . فلما أوضحت له أن رأيى فى هتلر يختلف تماماً وأنه كان مجرماً . أحسست أن الموصال قطع بيننا إلى الأبد . والصينى الذى يعمل أستاذا للقانون الدولى فى إحدى جامعات أمريكا ... رجل دائم الابتسام . عشرى . يصاحب الجميع . وينسج علاقات واسعة بدأب منقطع النظير عرفت أنه يعيش أغلب الوقت خارج أمريكا متنقلا بين المؤتمرات . لقد اكتشفت أنه يوجد فى الهيئات الدولية وفى النشاط الدولى نوع من الخبراء أطلقت عليهم تسمية ساخرة هى : خبراء الطائرات النفاثة . لأنهم ينتقلون من بلد إلى بلد . ومن اجتماع إلى اجتماع ومن مؤتمر إلى مؤتمر طوال السنة فلا تتاح لهم فرصة دراسة أى موضوع . ويتحولون إلى محترفين للخطب . والكلمات المحفوظة . ولمؤتمرات الكوكتيل وللمآدب والحفلات . والهندى ذو الوجه المفتوح القوى . تبرق أسنانه البيضاء فى ابتسامة مضيئة ويتحدث بصوت عميق . ويجلجل بضحكة ملؤها الثقة بالنفس . ويتحرك جسمه العريض بخطوات ناعمة ونابتة كالنمر . قال لى إنه صاحب مزارع شاى واسعة فى جنوب الهند . وإنه جاء خصيصاً لحضور مؤتمر

ماليزيا : الإنسان فى مزارع المطاط . . حفرة دائرية فى قشرة الشجر والكأس يمتلئ . . . نقطة نقطة

تنظيم الأسرة . فتساءلت في سري عما يجعل رجلا رأسماليا كهذا . بل يجعل رأسماليين عربا يهتمون بتنظيم الأسرة .

وهنا في ماليزيا تشعر بالبلاد التي ما زالت تحيو في طريق التحرر من الاستعمار . تبحث عن الطريق بدون أن تهتدي إليه ، لأن سحب الماضي ، وسموم النفوذ الأجنبي ما زالت تحجب الرؤية . ولأن تحالف الطبقات الإقطاعية القديمة والرأسمالية الجديدة ما زال يفرض قيوده . ولأن الاحتكارات الأجنبية تحيط هذا البلد الغني بأخطبوطها المتشابك .

وكوالالامبور مدينة عصرية . واجهة من الواجهات التي أقامها الغرب مثل بانجكوك وطهران . الشوارع الواسعة . والميادين الفسيحة يرتفع فيها رذاذ النافورات . وتلمع بألوان قوس قزح في ضوء الشمس . والمباني البيضاء . والفيلات الحديثة تصعد في خطوط متصلة فوق الروابي الخضراء . هنا تحيا البورجوازية الماليزية ، تنعم بتكييف الهواء في منازلها . وتسرع في سياراتها اليابانية والأمريكية ، عبر الشوارع ، يرتدي نساؤها « المنيجيب » ويرتدي رجالها البنطلون والقميص ورباط العنق مثل الأمريكيين . ويمتطي شبابها الدراجات البخارية تنطلق كالبرق فوق الأسفلت الأسود يمتد كشريط من حرير . ويرقصون على أنغام « الكاليبسو » و « السيكيديلي » حتى الصباح .

وهنا تصدر الصحف باللغة الإنجليزية . تقرأ على صفحاتها أخبار الاعتداءات المسلحة والسطو . والجرائم ، ودراسات عن انتشار المخدرات بين الشباب وحتى بين أطفال المدارس .

ماليزيا : استخراج خام القصدير من النهر

صناعة تدمير الإنسان من الداخل !

وفى يوم من الأيام كنت فى أحد قاعات الفندق فسمعت صوتاً أمريكياً أجش يرتفع من أحد الأركان . اقتربت منه لأجد أمامى جهاز التيلفزيون . وفوجئت بأن جميع البرامج التى تذاع . . . الأخبار . والتعليقات والمسرحيات . والإعلانات حتى النكات نسخة باهتة من الاستعمار الجديد المعتمد على التغلغل الاقتصادى والثقافى فى أخبث صوره . وأن البلاد لم تكتشف شخصيتها الوطنية حتى الآن .

وقد نظم المشرفون على المؤتمر رحلة إلى أحد المناطق السياحية . فندق على قمة جبل اسمه « جنتينج هيلاندز » وهو اسم إنجليزى يعنى مرتفعات « جنتينج » . وصعدنا إلى القمة فى موكب من سيارات الأجرة سارت فى خط طويل عبر الطريق الجلزونى يطل على الغابات الكثيفة . . . أشجار عملاقة داكنة الخضرة تضرب بجذورها فى الأرض الحمراء .

استقبلنا صاحب الفندق عند الباب وقادنا إلى صالون واسع الأرجاء . الواجهة كلها من الزجاج تشعرك بأن لا شىء يفصل بينك وبين التلال . والأشجار . والسماء الرمادية تتخللها مساحات من الزرقة الصافية كالبحيرات .

وقف الرجل بيننا يحدثنا عن مشاريعه . نموذج مجسد لرجل الأعمال الغربى يستقر خلف وجه آسيا التقليدى . العيون التى لا تستطيع أن تقرأ فيها شيئاً . والابتسامة الدائمة . والحفاوة الحارة .

« هنا سنضيف جناحاً جديداً للفندق يسع ١٠٠٠ حجرة . وسعر الحجرة ٧٦ دولاراً ماليزياً فى الليلة شاملا الطعام (٢٥ دولاراً أمريكياً) وهنا — وأشار بأصبع مبتور عند المفصل الأخير — سنبنى حماماً للسباحة .

ماليزيا : جامع فى كوالا لومبور

وعند تعرف آخر خصصت أرضها لوسعة حتى تروقها كساحة لعب "جولف" وعند السور سيحيط بحديقة نباتية . ووسط الحديقة انفق على إقامة نافورة نيلي . ثم أضاف : من نوع خاص ... وألقى بنظرة جانبية مرحة إلينا كأنه يستكشف رد فعل .

أقدامنا تغرس في البساط نسميك . سرنا عبر الصالون نشق طريقنا بين المقاعد الجلدية الوثيرة المتناثرة في إهمال منظم . وحلقات الناس تفوح منهم رائحة العطر والتبغ . البهو مصنوع من المرمر والرخام . تصعد منه وتهبط إليه المصاعد اللامعة بجراسها الموسيقية . وأضواؤها . وتتفتح أبوابها وتغلق على سيل متدفق من الناس . هبطنا إلى البدرون : صالة ضخمة فيها جميع أنواع القمار موائد البكارا والروليت الخضراء تدور فوقها الأرقام العاجية المدونة . وتتحرك الأيادي الناعمة . والفيشات ؛ وينسكب الزهر مع الحظ . وتمتد العصاة الطويلة وسط دائرة من الوجوه ؛ والأنفاس المعلقة . والكلمات الخامسة . مئات من الرجال والنساء أغلبهم من الشباب الذي لا يتعدى سن الدراسة أخذتهم حمى المقامرة فحضروا فوق الجبل يلقون بالنقود بدون حساب .

صعدنا إلى الدور الأول . هنا تمتد الصالة بطول الفندق مسافة تصل إلى مائة متر . انتصبت فيها عشرات الآلات الميكانيكية تلمع بلونها المعدني البارد . ألعاب متنوعة تضع فيها قطعة من النقود على الأرقام ، أو صورة من الصور . أو زاوية من الزوايا . أو كرة ملونة . فيصدر عنها صوت دوران معدني في داخلها . يخفق معه قلبك في انتظار النتيجة ثم ينقلب الضجيج إلى صمت كالقبور لترقد نقودك في جوفها مفقودة إلى الأبد . ولكن بين الحين والحين تستسلم الآلة لموجة من الكرم المفاجئ فتنسكب منها الدوائر الفضية دفعة واحدة يحتك بعضها ببعض مصدرة ذلك الصوت المرح الرنان . صوت النقود الذي يسعد قلب الواقف أمامها .

ماليزيا : رقة الفتيات تتضح فى الرقص الجماعى

وهذه الآلات بسيطها جاكبوت وهي احتكار لبعض الشركات في أمريكا . التي لها صلة وثيقة بعصابات المافيا المسيطرة على صناعة القمار في جميع بلاد العالم المرتبطة بالغرب . ولذلك فإن الجزء الأكبر من المكاسب التي تعود منها تذهب إلى جيوب ملوك القمار في الولايات المتحدة .

وصناعة تدمير الإنسان صناعة عصرية منظمة تتشعب وسائلها وتتشابك . فإذا أردت أن تستغل الإنسان وأن تتحكم فيه فلا بد من تدميره . لا بد من القضاء على وعيه . على ثقته واعتداده بنفسه . وعلى استعداده للنضال . وإذا أردت أن تنجح في ذلك فلا بد من البدء في سن مبكرة عندما تتكون شخصية الإنسان وتتحدد معالمها .

وليس من قبيل المصادفة أن تجد بجوار آلات « الجاكبوت » هذه ألعاباً أخرى للأطفال . بعضها مبني على الحظ وعلى القمار . ولا تختلف إلا من حيث صغر المبالغ التي تراهن أو نوع الألعاب : سباق البط . وسباق السيارات . والموازير . وصندوق ضخم بأزرار أوتوماتيكية يستطيع أن يمارس الصغار من خلالها هواية إلقاء القنابل ، أو إطلاق الصواريخ على القرى والمدن .

جلست إلى جوار السيدة الفيليبينية مندوبة جمعيات تنظيم الأسرة في المؤتمر وسألتها :

« ما رأيك في كل هذا ؟ »

هزت كتفيها النحيلتين وقالت :

« جو من الرفاهية أشعر أنه مؤقت » .

« لماذا ؟ »

« يستنزفون مواردهم بدون أن يضيفوا شيئاً » .

« أليس الوضع عندكم مشابه ؟ »

« إلى حد كبير . ولكن الوعي بها يتزايد » .

ماليزيا : رقصة بالمنديل تعبّر عن التساؤل الحيران

السلطان فى المطعم !

فى المطعم الكبير لفندق كنا ثمانية . السيدة فيليبينية تحس فيها بالمرأة التى تعودت العمل وتحمل المسئولية منذ سن مبكرة . هادئة ، متزنة وقد زحف الشيب إلى شعرها الأسود الأملس الذى رفعته خلف رأسها على طريقة النساء الآسيويات . وسيدة أيرلندية مندوبة منظمة الأغذية والزراعة ، وسيدة سويدية مرحة تلمع عيناها خلف النظارة ببريق ساخر ، ومدير مشروع تنظيم الأسرة فى الهند . رجل تخطى سن الخمسين يكاد لونه يقترب من الزنوج . ورجل اقتصاد لبنانى يعمل فى قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة يحكى قصصاً مضحكة بدون انقطاع وطبيب من سيلان . وأخيراً شاب ماليزى من أصل صينى مندوب صاحب الفندق .

قاعة الطعام برغم اتساعها الشاسع لا يوجد فيها مكان خال : كتل من الناس يبدون كالأشباح فى نصف الظلام وقد تجمعوا فى دوائر حول الموائد يأكلون أو يتحدثون بأصواتهم الهامسة . وبين الموائد حركة لا تنقطع عشرات البنات يرحن ويجئن من مكان إلى مكان بدون كلل وقد حملن صحاف الطعام : أجسام آسيوية رشيقة يرتدين « المنيجيب » : ولكن على وجوههن مسحة من الجد وأحياناً من الحزن غريبة ، كأنهن تلميذات مدرسة للراهبات .

فى وسط القاعة ارتفع مسرح كبير وقف عليه أفراد الأوركستر : شباب ماليزى بأجسادهم النحيلة ، وقفاطينهم الآسيوية الدقيقة .

ماليزيا : السلام بضم اليدين يعبر عن بداية الرقصة

وشعورهم مضفورة على طريقة شينيز يتدلون وهم يرتدون بعض الثياب الحريرية . ومن خلفهم خادمة تتحرك ذهاباً وإياباً بمروحات تجريدية مصنوعة من مئات الألوان . كرات . ونجوم . ومثلثات . ومربعات . وورود كالمظلات . وألسنة من اللهب . وأجنحة هشة كالقطن والسحاب .

المائدة التي نجلس حولها مستديرة في وسطها طبلية من الخشب تدفعها بيدك فتدور . وأمام كل منا عدد من الأطباق والملاعق المصنوعة من الصيني الأبيض . وعصوان من العاج . الأطباق صغيرة تشبه في شكلها السلطانية . والملاعق مجوفة تجويفاً عميقاً ويدها قصيرة .

أطباق الأكل توضع على الطبلية وسط المائدة . والطبلية تدور حتى يتناول كل واحد ما يريده . .

كل شيء يتم في هدوء بدون عجلة . فالأكل هنا عملية استمتاع طويلة تتخللها الأحاديث أو حتى مجرد الصمت . الطبق يوضع على المائدة . ولا يرفع إلا عندما يكون الجميع قد توقفوا تماماً عن الأكل . وعدد الأصناف يبدو لا نهائياً للدرجة أننا اختلفنا حول العدد ونحن عائدون في سيارة الأجرة تهبط في الظلام على الطريق الحلزوني من قمة الجبل إلى قاع المدينة . تذكرت أنا منها حساء سمك القرش الذي أقدمت عليه بحذر شديد ثم اكتشفت أن لا مثيل له في الطعم عندما تسكب عليه قليلا من الخل الأحمر المحتوى على قطع صغيرة من الفلفل الأخضر الحراق . والأرز المخلوط بالبازلاء وشيء كالكركم . والجنبري الصغير المسلوق الذي ينبغي أن تضيف إليه ملعقة من الصلصة الخاصة التي تقدم إلى جانبه في وعاء صغير . والفراخ المشوية يفوق طعمها كل ما ذقته من قبل . وبخاصة أنني لست من هواة المشويات . وطبق يتكون من قطع صغيرة من الفراخ مطبوخة في سائل أحمر « مشطشط » يشيع الدفء كلما ابتلعت قطعة منها . وكبد الإوز . والسمك .

ماليزيا : السيدة الفيليبينية فى شرفة منزل مدير مزرعة المطاط . . .

وخضراوات عبارة عن جذور بعض أنواع البرص ، ومعها بيض عصافير المسنوقة التي أوضح لنا الشاب المالبزي أن عمرها خمسمائة سنة . تناولت واحدة منها فوجدت أن البياض تحول إلى لون رمادي يميل إلى الأسود المشوب بزرقة بسيطة . استجمعت شجاعتي ووضعت البيضة في فمي وسط نظرات الاهتمام والاستطلاع ، وكأن أصدقائي ينتظرون النتيجة ؛ فتوجست بملمس كالقصيدة . وبطعم البيض مخلوطاً بطعم آخر يشبه ؛ أبا فروة ، المشوية .

لا أتذكر هل كان عدد الأطباق اثني عشر أو ثلاثة عشر . أتذكر فقط أنني نظرت إلى الساعة بعد أن انتهينا من العشاء فاكتشفت أننا مكثنا ثلاث ساعات نأكل ؛ بدون أن يشعر الإنسان بالملل أو الامتلاء . . . عملية استطعام طويلة هادئة تحس بعدها أن الحياة لم تفقد لذتها وتجد جسمك وقد غدا دافئاً ، كأن شعلة خفية أضيئت في أعماقه من كثرة المواد « الحارقة » .

كدنا أن نفرغ من تناول الطعام عندما أحسسنا بحركة غير عادية . رأينا عدداً من الرجال ومن بينهم صاحب الفندق . والشاب المالبزي الذي يجلس معنا يهرعون ناحية الباب . بعد قليل عاد إلينا الشاب . جلس ، ثم أومأ برأسه إلى مائدة قريبة منا بدون أن ينظر ناحيتها ؛ وقال بصوت انخفضت نبراته إلى شيء قريب من الهمس : « سلطان » . . . التفتنا إلى المائدة التي أحاطت بها دائرة كبيرة من الناس يتوسطهم عملاق برونزي اللون يبرز بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، وعنقه الغليظ ، ورأسه الكبير المحلوق بالموسى يرتفع فوق مستوى الجالسين معه . كان يشبه تماماً الصورة التي كثيراً ما نراها للحراس المغوليين يقفون أمام باب سميك وقد رفعوا بين أيديهم السيوف العريضة . أمعنا النظر في الجمع الصغير بفضول . السلطان يرتدي قميصاً ملوناً مفتوحاً عند الصدر ، وسروالا . أما بقية الرجال فكانوا بالملابس الإفرنجية ، بعضهم شباب أطالوا شعر رءوسهم

ماليزيا : الفتى والفتاة فى رقصة شعبية

وتركوه تنساب على إحاديهن ومن خلف . أما النساء فكانت تلف
أجسادهن بوشيحة فلسطين المسبرة ذات الألوان الحريرية الزاهية . كانوا
يجلسون جميعاً في صمت . الرجال وضعوا أيديهم فوق المائدة فتبدو آثار
المعاصم في ضوء الخافت . والنساء ثبتوا عيونهم في الأطباق التي وضعت
أمامهن في استسلام كأن مجرد الارتفاع بنظراتهن إلى أعلى قد يشم منه
ما لا يجوز .

كان العرض قد بدأ على المسرح . مغنية تنفث كلمات الحب في
صوت عميق فيه شرخ مبحوح كالحزن وتقف كالتمثال الأبيض في شعاع
الضوء . والناس يصفقون في فتور كأن الحماس في وجود السلطان شيء
لا يليق . والجالسون مع السلطان ينظرون إليه عند نهاية كل أغنية كأنهم
يريدون أن يستشفوا منه الرضى أو الضيق . وهو لا يتحرك . ولا يتكلم .
ولا يبدو عليه أي شيء . كقطعة من الصخر صبت قديماً من فوهة
بركان لتبقى مكانها . ثم جاء دور ألعاب الأكروبات . مجموعة من
الرجال كالمصارعين ربطوا معاصمهم بأشرطة من الجلد . وثلة من الأطفال
وأربعة من الشباب بدوا كالفرق البدائية التي تتجول بين القرى لتكسب
قوت يومها . كانوا يقدمون ألعابهم وقد ثبتوا عيونهم على السلطان كأن
خوفاً مستمراً يشد انتباههم نحوه . وعند نهاية كل فقرة كانوا ينحنون إلى
الأرض وقبلتهم ناحيته .

مال الصديق اللبناني ناحيتي وهمس :

« ما رأيك ؟ »

قلت : « فيم ؟ »

« فيما رأيت الليلة » .

ترددت لحظة :

« تناقضات غريبة » .

« ولكن طبيعية في مثل هذه البلاد » ، وأشار إلى صاحب الفندق الذي

كان وقفاً عند حدود سوفيتو بنابع مرض ... هو الكوليرا ثور . وهنا

وهناك يرأسه ناحية شمالية شجاورة ... هو السلطان . هنا التكنولوجيا الرأسمالية . . . . . وهنا بقايا القبلية والإقطاع . .

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما عدنا إلى الفندق . صعدت إلى حجرتى . كانت تبدو باردة موحشة . أدرت مفتاح الراديو وأشعلت سيجارة ثم حشرت جسدى المتعب تحت الأغطية . هذه البلاد غريبة . مدهشة . فيها ما يثير الإعجاب . وفيها أيضاً ما يثير الخوف .

الإنسان فى مزارع المطاط

زحف الأتوبيس فوق شريط من الأسفلت الأملس كجلد امرأة زنجية . يخترق مساحات الخضار . على الجانبين صفوف من الأشجار ترتفع سيقانها الفارعة فى خطوط منتظمة تحس فيها يد الإنسان العامدة . وتحجب فروعها وأوراقها سماء رمادية اللون . الأرض تحتها ترتفع وتنخفض فى تلال صغيرة تحس بها فى حركة الأتوبيس كأننا نسير على أمواج البحر .

حول السيقان خطوط دائرية شقت بسكين حاد . وعند أسفل الخطوط كأس صغيرة من المعدن الصدئ مربوطة بسلك معدنى يسيل فيه سائل كاللبن الأبيض . . . . نقطة ، نقطة . المطاط الخام الذى يمثل ٤٠٪ من الإنتاج القومى فى ماليزيا .

هذه المزارع الشاسعة التى تمتد أبعد من مرأى العين تملكها شركات ضخمة . رءوس أموالها إنجليزية أو أمريكية دخلت معها الأموال

ماليزيا : أسرة فى مزارع المطاط ... زراعة قليل من الخضر حول المنزل للاستعمال العائلى

الوطنية بتشييد الحدود . وهنا وهناك مساحات من الأرض غطتها أشجار النخيل . جذوعها القصيرة مغروسة فى الأرض كأنها توقفت عن النمو فى سن مبكرة . ثمار تميل لبيضاوية مكتنزة مصبوغة بألوان خضراء تتحول إلى الأحمر الغروق . وهذه الثمار لا تصلح للأكل ولكن عندما تنضج يجمعونها . ويضعونها فى أكواء عالية فوق مقطورات النقل . تحملها إلى معاصر ميكانيكية حديثة . فقد انخفضت أسعار المطاط فى الأسواق . كما انخفضت أسعار كل المواد الخام . وتفاقم التزييف التجارى الذى يمتص ثروات البلاد النامية لمصلحة الاحتكارات العالمية . وأخذ المطاط الصناعى يتقدم خطوات واسعة . ويهدد مكانة المطاط الطبيعى . لذلك لجأت هذه الشركات إلى البحث عن مواد زراعية أخرى ومنها زيت النخيل .

بين الحين والحين . من نافذة الأتوبيس . كنا نلمح امرأة شابة ترتدى قبعة من الخوص وسروالا . وقميصاً ملوناً . يبدو وجهها دائرة سمراء تحت القبعة . تراها تسير وحدها من شجرة إلى شجرة تجمع السائل الأبيض من الكؤوس فى جردل من البلاستيك تحمله معها . وقد تركت الدراجة التى تتنقل بها مسنودة على إحدى الأشجار . شىء ما فى هذه المرأة وهى تتوغل فى جوف الغابة يوحى بالوحدة الفظيعة . بالبؤس . . . هكذا هى الدنيا التى نعيش فيها . . . الغنى الفاحش يجاوره دائماً البؤس الفاحش . والإنسان يجمع اللبن الأبيض لكى يصب فى أفواه أصحاب الشركات . يمشى وسط الغابة حتى اليوم الذى يكتشف فيه أن واحداً زائداً واحداً يساوى أكثر من اثنين .

والوحدة سمة من سمات الحياة فى مزارع المطاط فالناس يسكنون هنا فى تجمعات صغيرة . أربعة أو خمسة . أكشاك خشبية تلاصقت جدرانها وكأنها تبحث عن الطمأنينة وسط الغابة الموحشة . ترى الملابس المغسولة

ماليزيا : فلاحة من ماليزيا تحمل « جردلين »

وهي تتسلق من الجبل . وعدد من الأطفال كعيدان الكبريت محروقة يمرحون حولنا أو يتطلعون بعيون نظرتها غريبة مستطلعة كأنهم قابلوا منذ زمن بعيد كل ما يدور حولهم كشيء طبيعي .

عند نهاية الطريق الذي كنا نسير فوقه انحدر بنا الأتوبيس إلى اليسار وسار مسافة تقرب من ثلاثة كيلومترات صاعداً في اتجاه قمة أحد التلال الخضراء . هبطنا من الأتوبيس لنجد المدير في انتظارنا . رجل هندي قصير القامة يغطي شاربه الأسود الكث فماً واسعاً . وفوق عينيه نظارة طبية تخفي نظره بإرادة نفاذة . كان يرتدي « بنطلون شورت » وحذاء ذا رقبة . قادنا إلى منزله . فيلا واسعة مبنية من طابق واحد ، بيضاء كالحمامة وسط المساحات الخضراء . تحيط بها حديقة كبيرة تناثرت فوقها أشجار الحناء والفل الهندي ، والياسمين الآسيوي ، وأحواض من البنفسج والزهور الاستوائية .

الحجرات واسعة الأرجاء يتفتح بعضها على بعض بدون أبواب . تلمع من النظافة المفرطة . وكل قطعة أثاث منتقاة تحس أن صاحبها جمعها خلال رحلاته عبر بلاد المنطقة . على الجدران سيوف من الفضة وسجاد من فارس وبخارى .

جلسنا على الشرفة نحتسي البيرة في أكواب من الفخار السلوفاكي الأزرق وتمضغ الحبوب الصفراء المحمصة المخلوطة بالبهارات ونوع من الشطة الحارقة .

لمحت في الحجرة المجاورة مائدة طويلة اصطفت فوقها أطباق من الفاكهة وزجاجات خمر مختلفة الأحجام والأشكال ، تلمع في الضوء المتسلل من النافذة القريبة .

لمح مضيفنا عيني وهي تستقر على المائدة فضحك وقال :

« ساوي الرجل في وحدته . أنت طبيب أليس كذلك ؟ »

قلت : « نعم . كيف عرفت ؟ »

لمعت أسنانه البيضاء القوية فى ابتسامة عريضة وكأنه فخور باكتشافه .

« من أسفارى الكثيرة » . سكت قليلا ، ثم استطرد : « عندنا مستشفى هنا » .

وقفت أتأمل عنابر الخشب الثلاثة . رائحة من الحصن تنبعث من جدرانها . والمرضى يجلسون كالأشباح فوق الأسرة ، وقد أزاحوا وجوههم عنا كأنهم لا يريدون أن ينظروا إلينا . أحسست بالكراهية كالرماد المشتعل تحت السطح .

وقف الطبيب الإيرانى إلى جانبى . رأيت عينيه الخائنتين تدوران حول العنبر وقد لمعت فيها نظرة غريبة كأنه عاد إلى شىء كان قد نسيه قلت :

ما رأيك ؟ »

هز كتفيه وصمت .

خرجنا من العنبر ومرنا عبر الحديقة إلى المنزل . قال فجأة :

« لذلك كرهت الطب » .

« وأنا أيضاً » .

« وددت لو تركت المهنة » .

« وماذا تفعل ؟ »

« أرسم » .

« وما الفارق . الرسام يتعذب أيضاً » .

« إنه على الأقل لا يتاجر بالمرضى » .

حملنا الأتوبيس فوق طريق العودة . الشمس تنحدر خلف السحاب نحو الأفق مررنا أمام قرية صغيرة من الأكشاك . حول الساحة الخضراء الممتدة أمام البيوت رصت صفوف من الدكك والمقاعد فى مربع كبير . المساحة مزدحمة بالناس يجلسون فى هدوء ورزانة .

ماليزيا : حفلة عرس وألعاب الملاكة الماليزية

الرجال يرتدون قمصاناً من الحرير الأبيض وغطاء الرأس من القرو الأسود . سألت الشاب الماليزى الذى أخذ يغمض عينيه استعداداً للنوم .

ما هذا ؟ ؛

قال : « قرح » .

فكرت خطة فى إيقاف الأتوبيس لأنضم إلى الجالسين فى الساحة ثم عدلت . يومان كاملان ونحن حول كوالالامبور . شاهدنا فندق « جتينج » وتناولنا الطعام فى أفخر الأماكن ؛ واستمعنا إلى الخطب ورأينا الأشجار والمزارع ومعاصر الزيوت ؛ ولكن لم يفكر أحد فى أن أهم حاجة فى ماليزيا هم هؤلاء الجالسون فى الساحة بقمصانهم البيضاء يتأملون ما يدور فى جد ورزانة . لم يفكر أحد فى أن أهم شىء كان ينبغى أن نراه ونعرفه هو شعب ماليزيا .

كوالالامبور فى الليل !

فى جميع البلدان التى زرتها . . . تايلاند ، وسنغافورة ، وماليزيا ، والهند ، والباكستان تصدر أغلب الصحف والمجلات باللغة الإنجليزية . وفى الصباح الباكر من كل يوم كنت أستيقظ على حفيف الصحيفة تدفعها يد حريصة من تحت عقب الباب . وفى كل مرة كان يعاودنى شعور غامض ، خليط من الدهشة والضيق أكاد لا أحس بوجوده ؛ ولكنه موجود . فقراءة الصحف فى الخارج متعة حقيقية . إن كل سطر فيها يأتيك بجديد . لكن عناوين الصحف فى ماليزيا تعكس ذلك التناقض المتزايد بين قيم المجتمع التقليدى وبين مشاكل الحضارة الغربية التى تزحف بسرعة على هذه البلاد ، والتى توقع الشباب فى حيرة شديدة . وأتذكر أنه فى يوم من الأيام قرأت خمسة موضوعات على الصفحة نفسها : تحليلا لظاهرة انتشار المخدرات ، ليس بين الشباب فحسب ،

ماليزيا : رقصة بطيئة بالريش . والجد فى العيون

ولكن أيضاً بين تلاميذ المدارس من سن عشر سنوات إلى خمس عشرة سنة . وقواداً أصدرته نقابة الأطباء لبشريين بضرورة منع الإعلان عن السجائر في التليفزيون . والإذاعة والصحف . بسبب الأضرار الصحية الناجمة عن التدخين . وتحبراً عن فصل مساعدة مولدة من وظيفتها الحكومية لاتهامها بمغازلة أحد الشبان من نافذة المطبخ المطل في أثناء وقوفه في فناء المستشفى . ومقالة عن المرأة العاملة ودورها في المجتمع . وتعليق عن المسابقة التي أجريت لاختيار ملكة الجمال في كوالالامبور ومعه عدة صور لفتيات يبدين أحدث أنواع البيكيني ، وأصغرها . وهذه التناقضات تلمسها في شتى نواحي الحياة .

وإذا كانت قراءة الصحف متعة وضرورة لفهم المجتمع الماليزي فإنك تشعر أنها لا تعبر في الواقع إلا عن تلك الفئة المحدودة من الشعب التي ارتبطت حياتها بنشاط التجارة والمال في المدن . وعن الملايين وأتباعهم في الريف . ومن هنا يأتي هذا التناقض الواضح بين القيم الزاحفة من الغرب وبين التقاليد المرتبطة بمجتمع زراعي يحيا في ظل علاقات إقطاعية .

ولكن هذه الفئات . إن كانت تحتل مكان الصدارة وتطفو على سطح الأحداث والمجتمع ، فإنها لا تمثل وجه ماليزيا الحقيقي . فإذا أردت أن تراه فلا بد من الغوص في الأعماق ، ولا بد من أن تسير في شوارع المدينة وأن تختلط أنفاسك بملايين الأنفاس ، ولا بد من أن تترك الحفلات الرسمية ، والملابس الرسمية ، والابتسامات الرسمية ، والحلقات الصغيرة التي تقف في الأبهاء الفاخرة تتبادل الأحاديث المكررة وكأنها تسمعها لأول مرة . وأن تنزل إلى حيث يحيا الناس وجوداً حقيقياً ، لا دوراً على مسرح الأحداث .

شوارع كوالالامبور أشرطة ضيقة تتفرع وتتشابك في دورة للمرور محكمة التوزيع . وحركة العمران تمتد بسرعة لتزحف فوق التلال الخضراء ،

ماليزيا : الرسم بالألوان على القماش من الفنون التى أجادتها المرأة هناك

مئات من المنازل تمتزج خطوطها الهندسية ، وألوانها الزاهية وتتلاشى عند الأفق . وفى قلب المدينة ترتفع المبانى الحكومية الحديثة بيضاء ، أنيقة بقبابها المأذنية عند الأركان وفوق المداخل ، صروح موروثة من عهد الاحتلال البريطانى . وإلى جوارها الجوامع التى يؤمها المصلون والتى يدهشك فيها مدى العناية والنظافة التى تحاط بها .

وفى وسط المدينة تجد المحلات الكبيرة ، والمطاعم ، والمراقص . والتحف . والحرائر . وأجمل ما فى شوارع العاصمة تلك البواكى المصنوعة من الموزايكو التى تحميك من لفحة الحرارة ، وتحوّل مهمة الشراء إلى نزهة لتذوق الفنى .

قال لى صديقى اللبنانى :

« ألا تريد أن ترى كوالالامبور الحقيقية ؟ »

« طبعاً » .

« إذن انتظرنى فى البهو الساعة السابعة مساء اليوم » .

ركبنا سيارة يابانية صغيرة . « مازدا » . كنا أربعة : شاب ماليزى وزوجته ، وصديقى اللبنانى وأنا . مرقت بنا السيارة عبر الشوارع المضاءة بأنوار قوية كنت أتطلع من النافذة ألتقط بين الحين والحين مناظر سريعة تمر أمام عينىّ . القمر يظهر فجأة من خلف السحاب تتراقص أمامه أشجار جوز الهند الفارعة وبحيرة واسعة تنتفض وسط مياهها أضواء النافورة يرتفع رذاذها فى ظلام الليل مثل سحابة رقيقة تتبدل ألوانها .

توقفت السيارة بعد نصف ساعة تقريباً . رأيت ساحة ضخمة تحيط بها الأكشاك الخشبية ، دكاكين صغيرة حولها مئات الناس كأنهم فى مهرجان . وأمام الأكشاك رفوف طويلة وضعت فوقها البضائع : أقمشة ، وملابس ، ولعب أطفال ومصنوعات جلدية ، وتحف ، وأدوات مطبخ ، وأحذية وخواتم ، وأدوات كهربائية ، وأجهزة راديو وتيلفزيون ، وزهور ، وفواكه

ماليزيا : متعة الشراء والأطفال يتابعون حركة البيع والشراء و « الفصال »

وخضراوات ، ومشروبات مدونة فى قناطيس صغيرة من الزجاج . اخترقنا ممراً ضيقاً لنجد أنفسنا فى بشبه ميدان ضخم اصطفت فوقه مئات من المنوائد تحيط بها دكك خشبية مثبتة فى الأرضية الأسفلت. وحول المنوائد شباب وشابات وأسر وأطفال وشيوخ ورجال ونساء .

على المائدة المجاورة لنا جلس اثنان رجل وعجوز وامرأته . كانا يحملقان فى يدور حولهما ، صامتين لا يتبادلان كلمة واحدة . ترى ماذا يدور خلف هذين الوجهين الجامدين كالقناع ؟ لاحظت أن المائدة التى يجلسان إليها بها فجوة كبيرة مستديرة . بعد قليل قام أحد الشبان الذين يقومون على خدمة الزبائن بإحضار موقد ضخم يعمل بالكيروسين . أشعله فرأيت اللهب يرتفع من الفجوة فى ألسنة حمراء لتتقض فى ظلام الليل . تبعته فتاة ترتدى « ساري » ناصع البياض ووضعت فوق الفجوة المستديرة إناء كبيراً ملأت نصفه بالماء . ثم جاءت فتاة أخرى تحمل كمية من المأكولات النيئة عبارة عن قطع من السمك . واللحم . والخضراوات . والبقول . وضعتها على صينية كبيرة . رأيت السيدة العجوز تلتقط هذه القطع وتلقى بها الواحدة تلو الأخرى فى الماء الذى بدأ يتصاعد منه البخار . مال الرجل فوق الإناء وأخذ يتتبع عملية الطهى باهتمام شديد . كأن أموراً خطيرة تجرى فى داخله .

التفت إلى صديقى الشاب الماليزى وسألته :

« ما هذا ؟ »

قال :

« عادة ماليزية قديمة ، ما زالت الأجيال السابقة تجد لذة خاصة فى ممارستها . المطعم يقدم الأطعمة النيئة والإناء والموقد ، والناس يتولون عملية الطبخ بأنفسهم . والمسألة سهلة لأنهم يكتفون بوضع كل المأكولات بعضها مع بعض وسلقها . وعندما تنضج ، يشربون الحساء ويأكلون اللحوم والخضراوات وقطع السمك مع إضافة صلصة خاصة

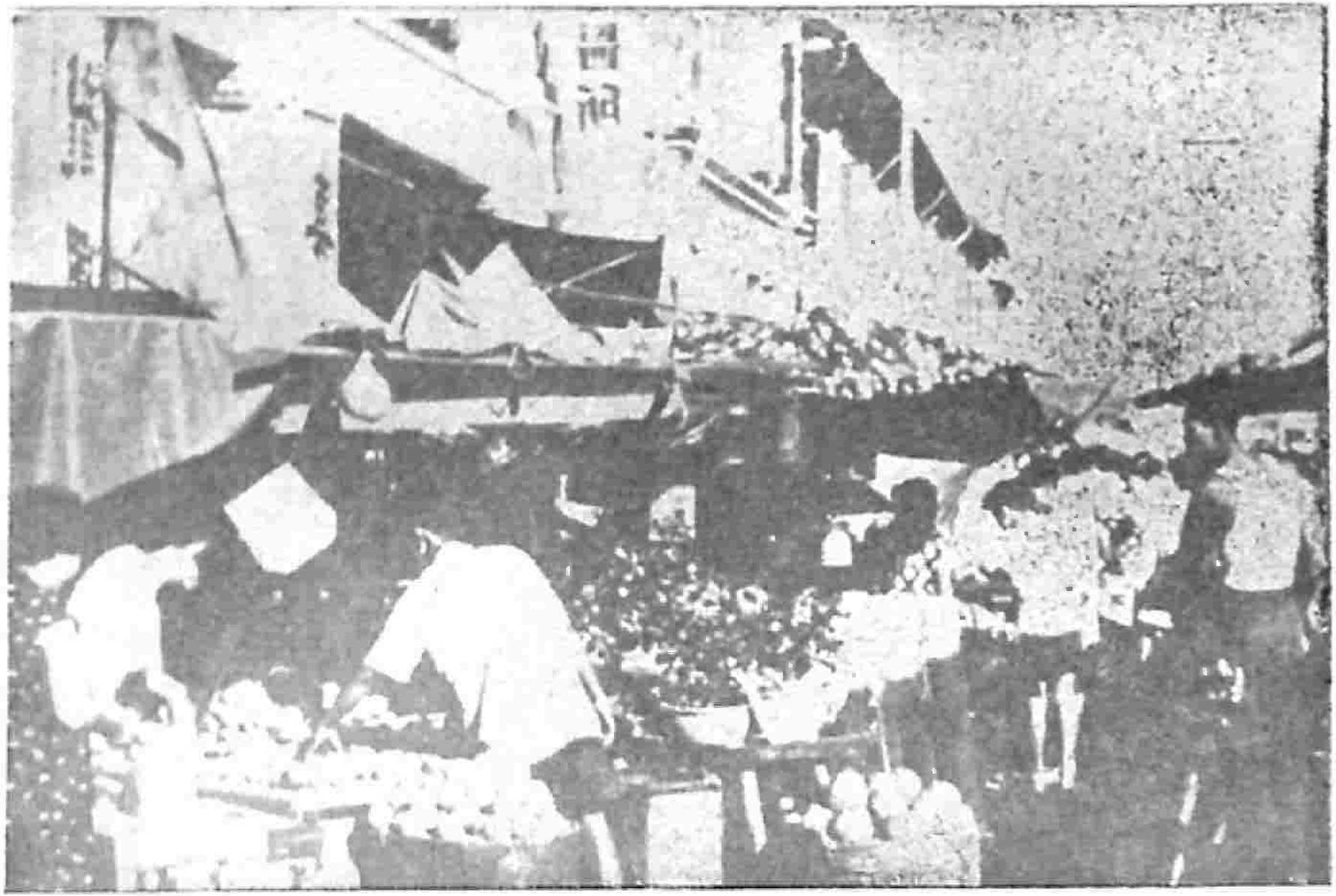

ماليزيا : الأسواق على أرصفة الشوارع

تحتوى على السكر ، والفستق ، وكمية كبيرة من الفلفل الأخضر الحراق .

- وتضع ؟ :

- إذا أردت أن تجربه يمكننا أن نطلب منهما طبقاً » .

- لا ، وشكراً » .

عدت أتطلع إلى العجوزين يجلسان أمام الإناء ، ويتابعان صوت الماء وهو يغلى ويرفعان الغطاء كل بدوره ، ليغرسا ملعقة خشبية كبيرة يحركانها فى بطء داخل الإناء ، ويستنشقان بين الحين والآخر رائحة البخار كأنهما يستخدمان أنفيهما كمقياس لتتبع مدى إنضاج الطعام . كل شىء فيهما يبدو هادئاً وكأن الوقت يمتد أمامهما بدون حدود : كأن الدنيا وكل ما يدور فيها لا يساوى فى أهميته هذه الجلسة المطمئنة تحت السماء المفتوحة والناس يروحون ويجيئون فى حركة دائبة ، وقطع اللحم والسمك تنضج ببطء داخل الإناء . ترى ما هى السعادة ؟ السعادة أن يعيش الإنسان لحظات الحياة أن يستمتع لحظة بلحظة ، أن يحيا بكل كيانه فى الحاضر ، فى الأشياء الصغيرة . ولكن كيف ؟

قال صديقى :

« هيا بنا نختار عشاءنا » .

سرنا على الأقدام حول الساحة الواسعة ، نتوقف أمام الأكشاك . هنا الفول السودانى يضعونه فوق الصاج الساخن بدون أن ينتزعوا عنه غلافه الخارجى ، فينضج بالتدريج . فإذا ما نزعت عنه القشرة الخارجية ووضعت الحبة الملتهبة فى فمك ، وجدتها طرية تشبه فى طعمها ثمرة « أبى قروة » التى كنا نأكلها أحياناً ونحن صغار . وهنا المشروبات الباردة ، جوز الهند الأبيض المثلج أو أنواع مختلفة من عصير الفواكه زاهية الألوان ، حمراء ، وبرتقالية ، وزيتونية ، تسبح فيها قطع من اللوز ، والصنوبر ، والزبيب ، والأعشاب البحرية كالخيوط المصبوغة بلون أخضر داكن ، والفواكه المجمدة ، وهنا الدجاج المحمر يدور ببطء

ماليزيا : بائعة « الساتاى »

حول سيخ طويل تغرس أسنانه فى لحمه الأبيض ، وهنا قطع اللحم اخترقتها بوصة رفيعة ، ووضعت فوق رماد مشتعل يتكون من تراب الفحم ؛ فتتناول منها بوصة ، ثم أخرى ، ثم ثالثة ، تنزع عنها قطع اللحم وتكومها على طبق كبير ، يحتوى على صلصة القستق الحمراء الحراقة . رأيت الناس يأكلونها على كل الموائد فى الساحة الكبيرة ، وعرفت من صديقى أنها الأكلة الوطنية المفضلة ، وأنهم يسمونها «الستاى» . وهنا أكوام الأرز : تلال منسقة من الحبات البيضاء المستطيلة ، أو تلال صفراء فى لون الكركم . وهنا أنواع الحساء المختلفة : حساء السمك ، والثعابين البحرية ، وكوارع الخنازير والبط ، وكبد الطيور . وهنا خنازير صغيرة مشوية معلقة يكسوها لون ذهبى يلمع فى ضوء الكهرباء .

جلست فى صمت . هؤلاء القوم بهدوئهم الغريب ، وأجسادهم الرشيقة ، والابتسامات الودود ، والدأب على العمل : ليس من السهل أن تفهمهم . أشعر أننى أنزلق على سطح حياتهم بدون أن أنفذ إلى الأعماق .

المؤتمر

مائدتان طويلتان فى شكل حدوة حصان تلتقيان عند الأطراف ، ودائرة واسعة من الناس تجلس حولها عشرات من النساء والرجال من مختلف البلدان . وجوه بيضاء ، وصفراء ، وسمراء ، وبروزية . وجوه من الشرق والغرب ، هنود ، عددهم كبير ، وزعوا أنفسهم بحيث احتلوا رئاسة المؤتمر وسكرتاريته ، ورئاسة اللجان ، وحتى أعمال المقررين ، يتبادلون الكلمات وكأنها كرة يلقونها فيما بينهم عبر المائدة البيضاوية ، وفيليبينيون ينفعلون من سخونة الدماء الإسبانية التى تجرى فى عروقهم ، وإيرانيون تقاطيعهم الحادة ، وأنوفهم السامية ، وعيونهم المشتعلة تجعلهم كالصقور . وشباب من دولة بانجلاديش الوليدة ، تحس فيهم حماس الجديد الذى يعيش فى الأمل . ويابانيون يكتبون ويسجلون طوال الوقت

ماليزيا : فتاة تتلو القرآن

كالآلات الصماء ، الفعالة والخفيفة فى الوقت نفسه ، والجنيز والمريكان بشرتهم حمراء ، وكمياتهم وحركاتهم مدروسة وكأنهم يقولون لك : .. ما زلنا نحن الأسياد » .

خليط متضارب متناقض ، ومتناهم فى الوقت نفسه ، يرسم صورة غريبة لقضية التكاثر البشرى وضرورة العمل بسرعة لتحييدها دون كارثة محققة . فإذا ما استمر النمو السكانى على ما هو عليه فسيصبح عدد سكان العالم عند آخر القرن ستة بلايين بدلا من ثلاثة ونصف . لن يجد الناس غذاءهم ، ولن يجد الأطفال لبنهم ، ولن يجد الشباب أرضاً يحرثونها ، أو مصنعاً يعملون فيه ، ولن يجد المرضى علاجاً لآلامهم . صورة للبشرية تأكل بعضها .

لا بد إذن من حل . وليس هناك سبيل سوى أن تقتنع شعوب البلاد النامية حيث يتركز الانفجار السكانى فى أشد صورة بضرورة تحديد النسل .

وهناك أصوات أخرى قليلة ، ولكنها موجودة تعارض وتحتج . مشكلة التزايد السكانى خطيرة ، ولكنها مشكلة تقدم . مشكلة تصنيع ، وتحضر ، وتعليم ، وفرص للعمل ليس للرجال وحدهم ولكن أيضاً للنساء . والدليل على ذلك أن بلاد العالم المتقدمة الصناعية لا تعانى من النمو السكانى السريع ، وجنوح الناس لتكوين الأسر الكبيرة يرتبط أساساً بأساليب الزراعة التقليدية ، وما يصاحبها من احتياج إلى اليد العاملة ، ومن اتجاهات قبلية ، ومن قلة طموح فى الحياة ، ومن أمية . فإذا أردنا أن نغير فى سلوك الناس فلا بد من تغيير ظروفهم . المسألة ليست فقط إقناع الناس بضرورة تنظيم الأسرة ، ولكن أيضاً وربما قبل ذلك توزيع ثروات العالم بالعدل وإعطاء فرص التقدم للجميع ، ونشر الآلة والتعليم ، والمعرفة فى كل مكان ، والقضاء على كل صور الاستغلال الإستعمارى التى تمارسه الدول الإمبريالية فى الغرب .

وتحتدم المناقشة . فهنا فى هذه الحجرة المغلقة على خمسين أو ستين من المندوبين يجلس ممثلو المناطق الصناعية فى ٢٩ بلداً من بلاد آسيا . ممثلو وزارات القوى العاملة والصناعة ، وهيئات التأمين الاجتماعى ، وأطباء المصانع ، وأصحاب المصانع وأيضاً مندوبو النقابات العمالية . فالعاملون فى الصناعة هم أكثر الناس استعداداً لتقبل الفكرة وممارستها . إن ظروف حياتهم قد تغيرت أو هى فى سبيلها إلى التغير . فلم يعد الطفل مورد رزق ، وإنما إنسان صغير ينبغى أن يأكل ، ويلبس ويتعلم . وحياة المدن توسع آفاق الإنسان وتخلق عنده احتياجات جديدة وتطلعاً إلى حياة أفضل والآلة تجمع الناس فى مكان واحد يسهل الوصول إليه ، وتحرر الإنسان من التواكل ومن الخرافات . لذلك فإن العمال يمكن أن يكونوا أكثر الناس وعياً بهذه المشكلة ، وإحساساً بها ، واقتناعاً بكل فكرة جديدة تفيد حياة البشر .

وأصحاب المصانع يريدون الاستقرار فى الإنتاج . والعامل الذى يعانى كثرة الأطفال كثيراً ما ينعكس هذه المشكلة فى عمله . ولذلك يدفع كبار الاحتكاريين فى مصانع الهند ، ومزارع الشاى ، الحوافز المالية للأسر التى تقلل من إنجابها .

وانعمان يختدون : « أيها الرأسماليون . لماذا هذا الحماس لتنظيم الأسرة ارفعوا مستوى معيشة العامل . وارفعوا الأجور ، وأعطوا الناس فرصاً كاملة للتعليم وعندئذ يمكن أن يستمعوا إلى دعوتكم لأنهم عندئذ سيقتنعون بها ويفهمونها » . لا بد من أن يتغير المجتمع بحيث يعمل لا الرجال فقط ، ولكن النصف العاطل من المجتمع ، الذى لا وظيفة له فى الحياة سوى إنجاب الأطفال . . . النساء .

ولكن شأن كل مؤتمر لا بد من الوصول إلى اتفاق . التطور الاقتصادى والاجتماعى مهم ، ولكن فرص هذا التطور ترتبط أيضاً بعدد الناس ، وكلما زاد الناس فى البلاد التى ما زالت تبنى اقتصادها ، صعب

بالبرتغال : فتاة تعمل على النول

توفير العمل . والمدارس . والمواصلات . والغذاء ، والأدوية ، والكتب ، والمسارح . إذن لا بد من تخفيض سرعة النمو السكاني . ولا بد لكل أسرة من أن تنجب الطفل عندما تستطيع أن تقدم له فرص الحياة . ولا بد أن تكون ولادة الطفل مسألة لا تأتي بالمصادفة . وإنما بالاتفاق بين الزوجين. هكذا يمتد تحكم الإنسان في حياته إلى مجال جديد . يضاف إلى مجالات أخرى . يمتد إلى ولادة الطفل : وإلى عدد الأطفال : وهكذا تسمح وسائل منع الحمل بأن يمارس الزوجان حياتهما الجنسية الطبيعية بدون أن يتهددهما شبح طفل لا يستطيعان تحمل احتياجاته المشروعة كإنسان يولد . وينبغي أن يعيش حياة الإنسان .

عشرة أيام من المناقشات قضاها ستون رجلا وامرأة في هذه القضية الهامة . وإذا كانت مثل هذه المؤتمرات تتفاوت من حيث ثمارها وفوائدها فإنها تشعرك دائماً بحقيقة هامة وأساسية . بالتقارب المتزايد بين البشر في كل أنحاء العالم . مما يعطي أملا متجدداً في أن مشاكل الإنسانية ستحل الواحدة بعد الأخرى .

أسوار تتحطم

تطلعت إلى الفتاة السمراء الجالسة خلف المكتب بشيء من الضيق ، ودفعت فنجان القهوة باللبن ، وطبقاً من الفطائر جانباً بأصابع متوترة .

« حضرت مبكراً » .

« اللافتة تقول : " ساعات العمل من الثامنة صباحاً " والساعة الآن الثامنة وعشر دقائق » .

حملقت في وجهي بعينين كالخرز الأسود وسكتت ، جلست على مقعد بجوارها وقلت :

« أهنا مكتب السفر التابع لهيئة العمل الدولية ؟ »

« نعم » .

« اتصلت بكم من أسبوع لأطلب الحجز على طائرة لنيودلهى » .
« ما اسمك » .
« د . شريف حنانة » .
أخذت تقلب فى دفتر كبير أمامها ، وقالت :
« لا توجد أماكن قبل يوم الاثنين انقاده » .
« المؤتمر ينتهى الخميس . ماذا أفعل هنا حتى يوم الاثنين » ؟
هزت كتفيها المكتنزتين وابتسمت بشىء من الخبث :
« هناك وسائل تسلية كثيرة فى كوالالامبور » .
فكرت لحظة ثم قلت :
« أعطينى جداول الطائرات من فضلك » .
دفعت بكتاب ضخم عبر المكتب وعادت تحتسى القهوة ، وتقضم قطعاً من الفطير .
أخذت أقلب فى الكتاب حتى اهتديت إلى الصفحة التى كنت أريدها . لمحت فى جدول يوم الخميس « طائرة إسبو ٥٠١ الساعة ١٧,٣٠ الساعة ١٧,٣٠ سألتها :
« ما هذا ؟ »
قالت :
« هذه طائرة سوفيتية » .
« أليست طائرة » ؟
سكتت لحظة ثم سألت :
« ألن يؤاخذوك فى بلادك إذا ما ركبت طائرة سوفيتية ؟ »
نظرت إليها فى دهشة :
« طبعاً لا . ولكن اسمحى لى أن أسألك أنا سؤالا . هل هيئة العمل الدولية وهى إحدى الهيئات التابعة للأمم المتحدة تقاطع الطائرات السوفيتية ؟ »

هزت كتفيها مرة أخرى بعدم اكتراث .

رفعت مضاعة الشيفون وأدارت القرص . سحبت مقعدى بعيداً أنتظر . بعد قليل أومأت إلى برأسها . وقالت :

« حجزنا لك مكاناً على الطائرة إسبو ٥٠١ التى تقلع غداً يوم الخميس الساعة ١٧.٣٠ مساء من مطار كوالالامبور إلى نيودلى . مر على بعد ساعة ستكون التذكرة جاهزة .

جلست فى بهو الفندق أقلب صحف الصباح . لفت نظرى أحد العناوين المنشورة على الصفحة الأولى .

« الحكومة تبيح السفر إلى البلاد الشيوعية » ابتداء من يوم السبت القادم الموافق . . . سيسمح للذين يرغبون فى السفر إلى البلاد الشيوعية بالحصول على تصريح لذلك . وسيكون عليهم أن يملأوا استمارة خاصة فيها بيانات تفصيلية عن أغراض السفر ، والجهات والأشخاص الذين سيتصلون بهم ومعلومات أخرى . ولا يسرى هذا القرار على الصين الشيوعية » .

حوار فوق السحب

سيارة اتحاد نقابات العمال فى ماليزيا تسرع بنا فى اتجاه المطار . الأحاديث والضحكات المرحة تختلط بالصوت المنتظم للمحرك يثب الطريق . هنا تسود البساطة ، بساطة فى الكلمات ، وفى الملابس ، وفى التصرفات ، وفى تلك العناية الطبيعية والصادقة التى تشعر أنك محاط بها من هؤلاء الرجال أصحاب الملامح المنحوتة ، والأيدى الخشنة . الرجل الذى يجلس إلى جوارى كان فى المستطاع أن يكون عاملا مصريًا ، ابن بلد من بولاق . أو من السيدة لولا اللغة الإنجليزية التى كان يتحدث بها .

قال محدثى :

« أنا مسلم من عمال السكة الحديد » .

« هل زرت مصر » .

« لا ، زرت إسرائيل بدعوة من الهستادروت . ولذلك لا أستطيع أن أزور مصر برغم أنى مشتاق إلى رؤيتها . وأشعر أن عمالنا كان يجب أن تكون مع نقابات عمال فى مصر .

أنتم منضمون إلى الاتحاد العالمى الحر أليس كذلك .

« ولكن هذا الاتحاد وقع تحت نفوذ النقابات الأمريكية والإنجليزية . وكثيراً ما يخدم أهداف السياسة الاستعمارية » .

« ولكن هناك نقابات رتبطت لأسباب تاريخية . وأصبحت صلاتها به قوية ولن ينتهى هذا الوضع بسهولة . أشلاحنا فى مانيلا أية محاولة لخلق صلات مع الاتحاد العالمى لنقابات الذى يضم النقابات فى البلاد الشيوعية لا بد أن تؤدى إلى مشاكل مع الحكومة . وربما إلى حل نقاباتنا . إننا نشعر أن عمال مصر أشقاء لنا . وإذا لم يتصلوا بنا فإننا لن نسعى سوى جانب إسرائيل » .

وقفت السيارة أمام باب المطار . أصر أن يحمل عنى الحقيبة . كان معى فى هذه السفرة اثنان من الهند . عمال أيضاً . أحدهما سكرتير المؤتمر العام للنقابات الهندية . وهو التنظيم الذى يعتبر فى يسار الحركة النقابية ، والآخر عضو المجلس التنفيذى لاتحاد نقابات الهند وهو التنظيم النقابى المرتبط بحزب المؤتمر الهندى . وقد علمت فيما بعد أنه عضو فى البرلمان الهندى ، ومن أسرة وزير الصحة الهندية فى الحكومة المركزية . كنا قد اتفقنا على حجز مقاعد متجاورة حتى نتحدث فى أثناء الرحلة . ونتسلى معاً .

دلفنا إلى صالة الانتظار الخاصة بالمسافرين بعد تبادل العناق ، والتأكيدات المتبادلة بضرورة إرسال الرسائل .

الطائرة فسيحة والمقاعد واسعة وبين الصفوف مكان واسع لمد ساقيك . لونها من الداخل عاجى والمقاعد والستائر زرقاء . شىء ما يوحى بالبساطة ، ونوع من الجو الأسرى ، ربما قليل من الفوضى ، والمضيفات

اللائى تميل أجسامهن إلى البدانة ، يشبهن الفتيات اللى تراهن فى السينما يعملن فى الخوخوزات . ودورة المياه مفروشة خانية من زجاجات العطور ، والكولونيا ، والشامبو ، وفرش الأسنان وأنابيب المعجون الصغيرة . وعلى الأرض فرشاة خشنة كتلك التى تستخدم فى البيوت المصرية لدعك البلاط .

سكرتير المؤتمر العام للنقابات الفندية رجل قصير القامة ، نحيل الجسد ، تشتعل عيناه الواسعتان الرماديتان تحت جبهته البارزة ببريق نفاذ . كنت قد لاحظته فى أثناء المؤتمر ، رجل يميل إلى الصمت ، يجلس هادئاً ولا يتدخل فى المناقشات إلا بين الحين والحين ، عندما تثار قضية يرى فيها مساساً بحقوق العمال ، أو محاولة لتجاهل المشاكل المتعلقة بالتنمية الصناعية .

كانت الساعة قد تعدت الواحدة بعد منتصف الليل عندما انطلقت الطائرة فى سباقها الجنونى بين صفين من الأنوار ، تراهما العين عبر النوافذ الصغيرة كخطين متصلين على أرض المطار . بعد خمس دقائق وضعت المضيفة صوانى الأكل الصغيرة أمامنا . تناول جارى الصامت تفاحة كبيرة حمراء وأخذ يقشرها بحركات بطيئة متأنية ، ثم قسمها إلى أربع قطع ، مضغها الواحدة تلو الأخرى ، وكأنه يقوم بعملية مهمة تحتاج إلى تركيز الذهن وإلى عناية . عندما انتهى من التفاحة غطى الصينية بفوطة من الورق ، وتوقف عن الأكل . سألته لماذا لا يأكل فأوضح لى أنه نباتى ولا يستطيع أن يأكل لحوم المواشى ، أو الدواجن ، أو الأسماك ، أو أى غذاء تدخل فيه المنتجات الحيوانية مثل اللبن أو البيض ، أو الجبن . كان ينظر إلى بملء عينيه الواسعتين الرماديتين ، ويجيب عن أسئلتى فى نبرات منخفضة مضغوطة أكاد لا أسمعها . عرفت أنه كان يعمل موظفاً فى السكة الحديد ، وانضم للحركة النقابية منذ أن كان شابا ثم بالتدريج أخذ يقف جهوداً متزايدة للمعارك النقابية إلى أن تفرغ تماماً قبل أن

يتجاوز الثلاثين سنة . وارتقى فى مسئولياته إلى أن أصبح سكرتيراً عاماً لمؤتمر نقابات كل الهند. كان أمامنا ما يقرب من خمس ساعات من الطيران المتصل قبل أن نصل إلى نيودلهى ، وبناء استعداده الواضح لقضاء الوقت فى تبادل الأحاديث انتهزت الفرصة لكى أوسع نطاق معلوماتى عن الهند .

« المشكلة السكانية عندنا قضية تؤرقنا جميعاً. ولكننا نرفض كل تلك النظريات التى تريد أن تصورها كأساس لتخلف ، وللمصاعب التى تعانى منها الهند والتى ترسم صورة مظلمة للمستقبل ، وللكوارث ، والمجاعات التى تهدد البشرية . تعال نعرض الحقائق . الفلاحون لا يجدون الخبز فى بلادنا . وتجد أمريكا تخزن القمح حتى لا ينخفض سعره فى السوق ، وتدفع تعويضات مالية باهظة لملاك الأراضى حتى يبوروا جزءاً من أرضهم بدلا من زراعتها بالقمح . وأطنان السمك يلقى بها إلى البحر وشعب الهند ، وشعوب أخرى تعانى من نقص شديد فى المواد البروتينية فى غذائها ، وهذه المواد أساسية لبناء الجسم ، أو إحلال أنسجة جديدة محل تلك التى تستهلك مع الزمن . يقولون إن هناك مشكلة انفجار سكانى فى العالم ، ولكنك تعلم بالطبع أنه حيثما تنمو موارد العالم بمقدار ٤٪ أو ٥٪ سنوياً يزيد عدد السكان فى المتوسط سنوياً بنسبة ١,٩٪ فقط . إنها ليست مشكلة سكانية بالمعنى الذى يحاولون ترويجه . إنها أساساً مشكلة سوء توزيع للثروات : مشكلة المبالغ الطائلة التى تصرف على الحرب ، مشكلة إحجام البلاد المتقدمة فى الغرب عن تقديم مساعدات غير مشروطة للبلاد النامية ، مشكلة استنزاف البلاد الفقيرة عن طريق التجارة غير المتكافئة . إنها مشكلة الاستعمار الجديد الذى يحتكر المال والعلم ، على حين نستطيع نحن : إذا توافرت لنا المساعدات المالية والعلمية ، أن نقيم المصانع ، وأن نزرع الصحارى ، وأن نستخرج غذاءنا من سطح البحر ومن قاعه » .

كانت عيناه تلمعان فى ضوء المائدة الخافت . ورأيت أصابعه الرقيقة تنبض بعصبية على ذراعه كأن شيئاً يؤلمه . قلت له :

« هل هناك شىء يؤلمك ؟

« ذراعى هذه .. عندما تنخفض درجة الحرارة تنتابنى آلام الروماتزم. داء حملته معى من بلاد السجن وجدرانه . لكن لا تنزعج فقد تعودتها. ولم تعد تقلقنى كثيراً . لنستمر فى الحديث » .

« ماذا تفعلون إذن فى تنظيم الأسرة بين العمال ؟ » .

« إنهم حذرون من الدعوة إليها . ويخافون من استخدامها كوسيلة لصرفهم عن نضالهم فى سبيل العدالة الاجتماعية والحرية . ولكن بالتدريج أخذوا يدركون أنه لا تعارض بين الاثنين . ولذلك أخذت النقابات تعطى اهتماماً متزايداً للمشكلة . وفى كل مصنع كبير نحاول أن ننشئ لجنة صغيرة فيها ممثلون للإدارة العليا . والنقابات . والإخصائيون والاجتماعيون. والطبيب والممرضة . وشئون الأفراد والعلاقات الصناعية . وفى رأينا أن الدعوة لتنظيم الأسرة ينبغى أن تصبح جزءاً أساسيًّا من الخدمات الأخرى . فيمكن إدخال الحوافز لعدم الإنجاب كجزء أساسى من التأمينات الاجتماعية . وربط الخدمات بتنظيم الأسرة مع رعاية الأم العاملة وأطفالها . ومع التوسع فى حضانات الأطفال الضرورية فى حياة المرأة العاملة ؛ وإدخال الدعوة لتنظيم الأسرة فى مجلات الحائط . والمجلات النقابية ؛ وكجزء من الثقافة العامة التى تقدَّم للعمال فى أثناء التدريب الوظيفى والمهنى ؛ وفى دروس محو الأمية التى تنظم للذين حرموا نعمة القراءة والكتابة وعند الاحتفال بالمناسبات الخاصة مثل عيد الطفولة أو الأمومة . ينبغى أن نوضح كيف أن تنظيم الأسرة جزء أساسى من الجهد العام لتوفير الصحة ؛ والثقافة ؛ وفرص الحياة للمرأة والأطفال ومساهمة مهمة فى رفاهية الأسرة وفى السعادة الزوجية ؛ وشرط لا بد منه لكى يستقر العامل وترتفع قدرته على الإنتاج بكفاية أكبر » .

« ولكن هل تعتقد أن هذه الجهود كافية لحل مشكلة التزايد السكانى السريع فى بلادكم ؟ » .

« لا . . . لا . . . إنها لن تؤثر إلا على ثلث الفئات من الشعب التى تأثرت بأنماط من الحياة الحضارية . وهم العاملون فى الصناعة ، والمثقفون . والموظفون . والمتعلمون عموماً سواء فى الريف أو فى المدينة . ولكن أغلب سكان الريف . وسكان المدن فى الأحياء الشعبية ، أولئك الذين يعملون فى الحرف . والمتاجر الصغيرة . أو لحساب الخاصين . وذوى المهن المؤقتة أو غير المحددة . . . هم المشكلة . ولا يمكن أن يتغير سلوكهم فى الحياة . ومعها نظرتهم لإنجاب الأطفال إلا إذا تغيرت حياتهم . بدخول التصنيع على نطاق واسع . وميكنة الريف . وتشغيل المرأة والتعليم . أنت تعلم أن الهند مقسمة إلى ولايات وأن عدد سكان هذه الولايات كبير . يصل أحياناً إلى تسعين أو مائة مليون . وقد اتضح أن الدعوة لتنظيم الأسرة نجحت نسبيا فى « الپنجاب » لأن هذه الولاية شهدت . فى العشرين سنة الماضية . حركة تصنيع وميكنة متزايدة للريف . ولم تعد الزراعة فى حاجة إلى الأيدى البشرية بالقدر نفسه . مما دفع الفلاح الپنجابى إلى البحث عن وسائل لتحديد أسرته . كما أن إدخال الأساليب الحديثة فى الزراعة يؤدى إلى زيادة الدخل ورفع مستوى معيشة الفلاح . وانتشار التعليم » .

« هل لديك أمثلة أخرى عن أثر الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى تحديد حجم الأسرة ؟ » .

« نعم هناك مثل آخر جدير بالتأمل . عندنا ولاية اسمها « كيرالا » ربما سمعت عنها فى مصر لأنها كانت مسرحاً لأحداث سياسية هامة منذ الاستقلال وعلى الأخص نتيجة لنفوذ الاتجاهات الاشتراكية الثورية فيها . كان النظام القبلى سائداً فى « كيرالا » خلال مئات السنين ، ولكن الغريب فى الأمر أنه كان نظاماً قبليا أمومياً ، أى أن رئيس القبيلة

كانت امرأة ، وكذلك رئيس الأسرة ، وعندما دخلت "كيرالا" فى مرحلة انسحلال النظم القبلية ، وانتقلت إلى نظم أكثر تقدماً ، احتفظت المرأة بمكانتها المتميزة فى المجتمع كاستمرار لنظام الماضى وتقاليده . ولذلك تجد نسبة كبيرة من البنات والنساء المتعلمات فى "كيرالا" كما أن عدداً كبيراً منهن يعملن كجزء أساسى من القوة العاملة النشيطة فى الصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، والمهن والوظائف المختلفة . والمرأة مكانة كبيرة فى الحياة العامة والخاصة ، وتتمتع بكيان مستقل عن الرجل ، لا ينازعها فيه إلا عدد ضئيل جداً من العقول المتخلفة . وفى هذه الولاية تجد الدعوة لتنظيم الأسرة آذاناً صاغية .

« وبهذه المناسبة هناك حقيقة هامة ، فى جمهورية الصين الشعبية حدثت محاولتان لإقامة برنامج قوى ناجح لتنظيم الأسرة . المحاولة الأولى كانت فى سنة ١٩٥٨ وقد أخفقت . أما المحاولة الثانية فبدأت منذ حوالى خمس سنوات وقد لاقت نجاحاً منقطع النظير . وهذا النجاح له أسباب كثيرة بالطبع : تجاوب الشعب مع قياداته ، والتمسك بالمبادئ والسياسة التى اختاروها لأنفسهم وفعالية التنظيمات الشعبية .

« ولكن عندما سألت المسئولين هناك عن أهم أسباب النجاح الذى يحققه برنامج تنظيم الأسرة الآن قالوا إن السبب الرئيسى هو خروج كل النساء تقريباً من البيت ، ودخولهن ميدان العمل . فالمرأة العاملة تقدر أعباء الإنجاب ومسئولياته ، وتسعى إلى تنظيم أسرتها » .

« إذن لا يمكن أن يحقق تنظيم الأسرة نتائج سريعة ؟ »

« هذا صحيح وربما لهذا السبب تصرح الحكومات بضرورة الاهتمام به ، ولكن نادراً ما يترجم هذا الاهتمام إلى سياسة فعلية تضع فى خدمتها الجهود ، والاعتمادات والقوة البشرية المطلوبة . ذلك أن المشاكل الاقتصادية والسياسية العاجلة تستحوذ على اهتمامها ، وجهودها الأساسية . ولكن هذا خطأ كبير . ذلك أن أية خطة لا يمكن أن تنجح إلا إذا بنيت

على دراسة حجم السكان المحتمل فى المستقبل وتوزيعهم من حيث العمر : وعدد أطفال المدارس الذين سيدخلون مدارس والمعاهد والجامعات ؛ وعدد الشباب الذين سيبحثون عن عمل لهم . كل هذا جزء أساسى من التخطيط للتنمية وعليه يتوقف إلى درجة كبيرة الإخفاق أو النجاح فى تحقيق أهداف التنمية . وينبغى أن ندرك أنه فيما يتعلق بتنظيم الأسرة فإن كل طفل يمكن الحيلولة دون ولادته هو قدر من المال يتوافر للاستثمار فى الإنتاج ، أو فى الخدمات . هل قمتم بحساب هذا الوفر عندكم ؟ »

« نعم . لقد قدر عندنا أن منع ولادة طفل واحد يوفر على الدولة أربعة آلاف جنيه » .

أحسست بالطائرة تهبط . ذلك الشعور الغريب الذى يبدو معه وكأن القلب يسقط فجأة إلى أسفل ،

قلت له :

« لم نتحدث فى السياسة » .

ابتسم وقال :

« فى نيودلهى سنتحدث فى السياسة » .